الاستلزام الحواري في الخطاب النّبوي الشريف:
مقاربة تداولية في نماذج من موطأ الإمام مالك - رحمه الله-

Dialogic Imperative in the Honorable Prophetic Discourse:
A Pragmatic Approach in Models of the Muwatta of Imam Malik - may God have mercy on him -

منانة إسحاق[1] / أ.د صبحي وفاء[2] *
Menana ishak [1] / Sobhi wafa [2]
جامعة عنابة (23000) /الجزائر
University of Annaba (23000) (Algeria)
ishakmennana@gmail.com[1] / Wafa_sobhi@yhoo.fr[2]

تاريخ الإرسال: 2024/03/21	تاريخ القبول: 2024/06/08	تاريخ النشر: 2024/09/03

مُلخّص البحث

تعالج هذه الدراسة ظاهرة الاستلزام الحواري، والتي تمثّل أحد الاستراتيجيات اللسانية الأكثر تداولا وتجلّيا في اللغة التواصلية. وهي تنشأ غالبا حين لا يلتزم المتخاطبون بالمبدأ الأول للتّخاطب المعروف بمبدأ التّعاون، والذي تميّزه المباشرة والتصريح، ليكون الاستلزام ضرورة في حمل المقاصد والمعاني الضمنية والمضمرة للخطاب. غير أنّ هذا الأمر لا يأتي مصادفة، بقدر ما يعمد إليه المتكلم تحقيقا لغايات بلاغية وفنّية، خاصّة في الخطابات الرّاقية والأكثر وظيفية في الحياة.

ولتتبع الاستلزام الحواري في الخطاب النّبوي الشّريف، وبعد تقديم أسس نظرية لتحديد ماهيته وأنواعه، اخترنا نماذج لأحاديث نبويّة من موطأ الإمام مالك رحمه الله. ومن خلال منهج تحليلي تداولي انطلاقا من عرض الحديث، ثمّ تحديد صنف الاستلزام وعلاقته بالجانب البلاغي والإقناعي، خلصت الدراسة إلى أنّ هذه الخاصّية التّداولية وردت بكثافة في الحديث النّبوي، وهي على صور وأنماط مختلفة، ولها مقاصد بلاغية من لدن النّبي ﷺ، وليست مجرد تضمين وإضمار للخطاب.

الكلمات المفتاح: استلزام حواري؛ خطاب؛ تداولية؛ حديث نبوي؛ موطأ الإمام مالك.

Abstract :

Study manages with the phenomenon of dialogical imperative, which represents one of the most widely used and manifested linguistic strategies in the communicative language. It often arises when the interlocutors do not abide by the first principle of communication known as the principle of cooperation,

* منانة إسحاق. البريد: ishakmennana@gmail.com

which is distinguished by direct and explicit, so that the implication is a necessity in carrying the intentions and implicit and implicit meanings of the discourse. However, this matter does not come by chance, as much as the speaker intends to achieve rhetorical and artistic goals, especially in the sublime and most functional discourses in life. In order to trace the dialogue requirement in the honorable prophetic discourse, and after presenting theoretical foundations to determine its nature and types, we chose examples of prophetic hadiths from the Muwatta' of Imam Malik, may God have mercy on him. Through an analytical deliberative approach based on the presentation of the hadith, and then defining the category of implication and its relationship to the rhetorical and persuasive aspect, the study concluded that this deliberative feature was mentioned extensively in the Prophet's hadith, and it is in different forms and patterns, and it has rhetorical purposes from the Prophet, may God's prayers and peace be upon him, and is not just include and imply discourse.

Keywords: Dialogic Imperative, Discourse, Deliberative, Prophetic Hadith, Muwatta Imam Malik.

المقدمة:

يفيد امتثال المتخاطبين بالمبدأ التداولي للتّخاطب توجيه المعاني المتداولة إلى معانٍ صريحة وحقيقية، فتحصل بذلك الفائدة القريبة والأكثر براغماتية للخطاب. أما في حال خروجهم عن مبدأ التعاون هذا، فتتحول القصدية في الحوار من صورتها الحقيقية والواضحة إلى صورة ضمنية داخل سياقات مختلفة. وقد تنبّه علماء التداولية إلى هذه الميزة الخطابية، وأشهرهم الباحث "بول غرايس" الذي أطلق عليها اسم "الاستلزام الحواري"، ثمّ شاع المصطلح بعد ذلك، وأخذ تفسيرات كثيرة، وصورا وأنماطا مختلفة، جعلت منه موضوعا تداوليا جديرا بالنظر والدراسة.

وإذا كانت قيمة النظريات العلمية تتحدّد من تطبيقاتها في ميادينها ومجالاتها، وهذا من البديهي مع كلّ تخصّص، وإذا كانت من جهة أخرى مفاهيم اللّسانيات التداولية تتّضح وتتجلى من خلال واقع الاستخدام الفعلي للغة بحكم أنّها حقل معرفي يهتم بدراسة العلاقة بين أركان العملية التواصلية (مخاطب، مخاطب، رسالة،

سياق) أثناء تأدية الخطاب، فإنّ هذا يستدعي معرفة صور وأنماط الاستلزام الحواري (موضوع الدراسة) من خلال صنف من أصناف الخطاب. وقد اخترنا الخطاب النّبوي الشّريف باعتباره خطابا بشريا راقيا، وفيه جميع أصناف البلاغة العربية؛ فهو مجال خصب لمعرفة استراتيجيات الخطاب التّداولي بحكم الرّسالة الدّعوية والتّأثيرية التي يحملها الحديث النّبوي من خلال فصاحة وبلاغة النبي ﷺ. وبناء على هذا، تتضح إشكاليات الدّراسة في طرح التّساؤلات الآتية: ما مفهوم الاستلزام الحواري؟ وما علاقته بمبدأ التعاون في الخطاب التواصلي؟ وما هي أهم صوره وأنماطه في الخطاب النبوي الشريف من خلال نماذج من موطأ الإمام مالك رحمه الله؟

وللإجابة على التساؤلات المطروحة، عمدنا إلى دراسة مجموعة من الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ الواردة في الموطأ، ولم يكن اختيار الأحاديث بناء على أيّ تقسيم أو أبواب في الكتاب بقدر ما كان بناء على ملاحظة الاستلزام الحواري فيه. وقد سبقت هذه الدراسة التطبيقية التحليلية للأحاديث تقديمات وصفية نظرية حول الاستلزام الحواري من حيث المفهوم والأنواع، وعلاقته بمبدأ التعاون الحواري، وكذلك بعض استراتيجياته. ومنه انتهت معالجة الموضوع على الشكل التّالي:

أولا: الاستلزام الحواري: ماهيته واستراتيجياته في الخطاب:

1- مفهوم الاستلزام الحواري:

يعدّ الاستلزام الحواري من خصائص اللغات الطبيعية، وهو يرافق التّخاطب؛ حيث تتغير فيه معاني الأقوال، وتتحوّل إذا روعي ارتباطها بمقامات الإنجاز، فلا تنحصر بذلك في ما تدل عليه صيغها الصورية، بل تتجاوزها إلى معانٍ خفية، ومقاصد ضمنية غير ظاهرة في السطح[1].

ويعني هذا تداوليا، أنّ التأويل الدلالي لبنية اللغة الطبيعية يصبح غير مجد إذا اعتمدنا الصيغة لوحدها. ولنأخذ مثالا لها كما يستشهد أحمد المتوكل: "هل تستطيع أن تناولني الملح؟" فاستخدام العبارة في مقام ما، يخرج بمعناها الأصلي من معنى السؤال إلى معنى الالتماس؛ أيّ الطلب من المخاطب مناولة وتقديم الملح[2].

ومعلوم أنّ غرايس من أوائل الفلاسفة الذين لاحظوا هذه الظاهرة؛ فبعض العبارات تفيد أكثر من الأخرى. ويسمّي "غرايس" هذا بالاستلزام الخطابي. ليتعين لنا انطلاقا من هذا فهم أنّ المتكلم يفرض على المتلقي أن يتجاوز من الدلالة المعاني الحرفية. ومن أمثلة ما سيق لشرح هذه الظاهرة، حوار بين أستاذين س و ع:

- الأستاذ (س): هل التلميذ (ف) مؤهل لمواصلة تعليمه الثانوي في شعبة اللغات الأجنبية؟
- الأستاذ (ع): إن التلميذ (ف) سبّاح جيّد[3].

ولاحظ الفيلسوف "غرايس" أنّه إذا تفحّصنا ما يحتويه رد الأستاذ (ع) من معانٍ، وجدنا أنّها تدل على معنيين اثنين في الوقت عينه، أولها حرفي مباشر والآخر مستلزم غير مباشر. ومعناها الحرفي أن التلميذ (ف)

من التّداوليين الجيدين، ومعناها الاستلزامي أنّ التلميذ المقصود ليس مؤهلا لمواصلة دراسته في شعبة اللغات الأجنبية[4]. بهذا يتّضح أنّ المتخاطبين في خطاباتهم وحواراتهم قد يقولون ما يعنون، وقد يعنون أكثر مما يقولون، وقد يعنون عكس ما يقولون، لذلك أكّد غرايس على توضيح الاختلاف بين ما يقال " what_is said"، وما يعنى "what is meant". فما يقال هو ما تدلّ عليه الكلمات والعبارات بقيمها اللفظية (face values)، وما يعنى هو ما يقصد المتكلم أن يبلغه السامع بشكل غير مباشر؛ وهذا استنادا إلى أنّ المتلقي لديه القدرة على الوصول إلى مقاصد المتحدّث بما يتوفر له من كفاءات لسانية وغير لسانية، لذا أراد غرايس بهذا أن يقيم جسراً بين ما يتضمنه القول من معنى صريح ومباشر (explicitmeaning)، وما يحمله من معنى ضمني غير مباشرة (inexplicit meaning)، ومنه نشأت فكرة الاستلزام (implicature)[5] والذي يمكن وصفه بأنّه ذلك الانتقال بين المعاني الحرفية للأقوال والمعاني المقصودة، مقيدة بشروط مقالية ومقامية وسياقية معيّنة.

2- علاقة الاستلزام بالتعاون الحواري:

لوصف الظاهرة وصفا أوضح، اقترح غرايس أنّ التواصل الكلامي محكوم بمبدأ عام (مبدأ التّعاون)، والذي مقتضاه إجمالاً أن يشترك المتخاطبون في بلوغ الغرض المراد من التخاطب"[6]. لذلك تماثل العلاقة بين التعاون الحواري والاستلزام ثنائية الحضور والغياب من اللسانيات البنوية. ويقوم مبدأ التّعاون على المسلّمات الآتية[7]:

- **مسلمة القَدْر (quantité):** تخص كمية الإخبار التي يجب أن يكون في الكلام.
- **مسلمة الكيف (qualité):** ومفادها ألا تقل بما تشكّ بأنه كذب، فلا تلفظ بما لا يمكنك بيان صدقه.
- **مسلمة الملاءمة أو العلاقة (pertinence):** وهي تتمثل في قاعدة: "لتكن مشاركتك ملائمة"؛ وهذا ليماثل المقال لب المقام.
- **مسلمة الجهة (Modalité):** وهي الوضوح والشفافية في الكلام.

ومن خلال العلاقة بين الالتزام والتعاون، يمكن ملاحظة أنّ ظاهرة الاستلزام الحواري تنشأ وتحصل في الخطاب كلّما خرق المخاطب إحدى القواعد الأربع السّابقة. ويكون ذلك على صور مختلفة **يخرق بها المرسل قواعد مبدأ التعاون.** وقد صنّف الباحث براون وليفنسون عددا من الاستراتيجيات التي ينتج المرسل بها خطابه، ويخرق بها مبدأ قواعد التعاون، ومنها؛ الكم، الكيف، العلاقة. وعددها في المجمل عشر استراتيجيات موزعة على ثلاث قواعد:

أ- استراتيجيات خرق قاعدة العلاقة:

- التلميحات (hints)
- ذكر معلومات تمهيدية.
- إفادة الاقتضاء (présuppose).

ب- استراتيجيات خرق قاعدة الكم:

- التهوين.
- المبالغة أو المغالاة.
- تحصيل الحاصل.

ج- استراتيجيات خرق قاعدة الكيف:

- التناقضات (contradictions).
- التهكّم (Irony).
- الاستعارة (Metaphore)
- الأسئلة البلاغية (Rhetorical questions) [8].

3- الفعل الكلامي وعلاقته بالاستلزام الحواري:

يمثل الفعل الكلامي أحد أهم مرتكزات المقاربة التداولية للنصوص والخطابات، وإضافة إلى أهميته القصوى فإنّ ما يحصل في الاستلزام الحواري من خرق لمبدأ التعاون بهدف التعبير عن مقاصد وأغراض معينة، وبأساليب مختلفة ومتنوعة، وأيضاً بهدف التأثير في المخاطبين ودفعهم إلى تغيير أو إنشاء أو تثبيت سلوك ما، نجده يقع مباشرة في صميم الفعل الكلامي.

يرى جون أوستن Austin John صاحب نظرية الفعل الكلامي: (بأنّ الإنسان حينما يريد الإفصاح عن أغراضه ومقاصده لا ينتج فقط أقوالا ذات تركيبات نحوية وألفاظ معينة، بل إنه بذلك ينتج أفعالا مخصوصة). إذن فنظرية الأفعال الكلامية تعنى أساسا بالجانب الإنجازي والتأثيري من اللغة، فالمتكلم في كثير من الأحيان – وفي مقامات وشروط محددة- ينجز أفعالا بمجرد نطقه لبعض الألفاظ و العبارات، كأن يقول البائع للمشتري: (بِعْتُك السلعة..) أو يقول القاضي في المحكمة: (رفعت الجلسة)، أو يقول الرجل لزوجته: (أنت طالق). فكل تلك الأقوال بمجرد إطلاقها والتفوه بها تتحول مباشرة إلى منجزات وأفعال تُـجسد وتنفذ على أرض الواقع.

وقد قسّم جون أوستين الفعل الكلامي إلى ثلاثة أفعال:

أ- فعل القول (Locutionary Act) : وهو إصدار قول أو جملة سليمة المبنى والمعنى ذات مقصد ما.

ب- فعل متضمّن في القول أو ما يسمّى بالفعل الإنجازيّ (Illocutionary Act) : وهو ذلك الفعل الذي يريد المتكلّم من مخاطبيه أن ينجزوه حينما يطلق قولا ما، كالنّهي، والأمر، والوعظ، والتوبيخ، والإرشاد...

ج- الفعل النّاتج عن القول أو ما يدعى بالفعل التّأثيري(Perlocutionary): وهو ما يحصل من أثر سلوكيّ أو فكريّ، أو وجدانيّ، يحدثه القول في المخاطَب أو المخاطبين.

وقد صنّف جون أوستين الأفعال الكلاميّة إلى خمسة أصناف وهي:

1- الحكميات verdictives:

2- الإنفاذيات Exercitives:

3- الوعديات Commissives:

4- السلوكيات Behabitives

5- التوضيحيات Expositives:

وقد تختلف بعض التسميات من مؤَلف إلى آخر ومن باحث إلى باحث آخر؛ وهذا غالباً ما يعود إلى اختلاف في الترجمة.

وبالنّظر إلى الحديث النبوي فإنّه من النّاحية اللسانية التداولية، كغيره من الخطابات حيث يشتمل على كثير من هذه الأفعال الكلامية بمختلف أنواعها، وبشتى أغراضها الإنجازية، وأهدافها التأثيرية، لذلك آثرنا أن يكون الفعل الكلامي هو المنطلق والمبتدأ في التحليل والدراسة للأحاديث النبوية، وكشفا لما تحمله الأحاديث النبوية من أحكام شرعية و دلالات إرشادية ومقاصد نبوية معلنة وغير معلنة.

4- **أنواع الاستلزام:** يميّز بعض الباحثين بين نوعين من الاستلزام، وهي:

أ- الاستلزام العرفي:

وهو الاستلزام النموذجي على حد تعبير لفنسون (Lévinson)، ويتمثل في المقاصد الاصطلاحية الظاهرة التي ترافق الجملة كدلالة الاقتضاء، وكذلك مع الكلمات التي تعارف عليها أهل اللغة، وهي المعاني الأصلية المباشرة دون المجازية والمعاني التركيبية والسياقية، والمعاني المعجمية المباشرة، ويسميها الغربيون " المعنى الحرفي" (forum)[9]. إذن فهذا الاستلزام العرفي يراعي فيه المرسل تلك القواعد.

ب- الاستلزام الحواري:

وهو المعاني التي يستلزمها الحوار، وتبرز مع خرق إحدى قواعد مبدأ التعاون، وهذا ما يجعل الاستلزام الحواري متغيرا دائما بتغير السياقات التي يرد فيها[10]. ويقودنا هذا إلى التنبيه على أنّ من العسير معرفة قصد خطاب ما إذا جُهل السّياق الذي أنتج فيه، إذ يكون الخطاب متأرجحا بين هذين النوعين من الاستلزام؛ فبعض السياقات ترجح الاستلزام العرفي والدلالة الاصطلاحية للألفاظ، وبعضها الآخر يرجح الاستلزام الحواري والمعاني الضمنية والتفاعلية داخل الخطاب[11].

5- شروط الاستلزام الحواري:

لا تتم ظاهرة الاستلزام الحواري إلا بقيام شروط واعتبارات ومعطيات خاصة يجب على المتكلم أن يأخذها بعين الاعتبار، وقد اشترطها وبينها غرايس، وهي[12]:

- المعنى الحرفي للكلمات المستعملة، وتعريف العبارات الإحالية؛ فلا قيمة لأي حوار إذا كان أحد المتحاورين ليس له علم ودراية بالمعاني الأصلية للألفاظ، ودلالاتها الظاهرة؛ فالمعاني الباطنة في التخاطب لا يمكن

الوصول إليها إلا بواسطة المعاني الظاهرة ابتداءً، كما أنّ جهل المتخاطبين بالعبارات الإحالية (الضمائر، الإشاريات الزمانية والمكانية) في الخطاب، يؤدي إلى لبس واضطراب في المعاني، وعدم اتفاق إزاء الذوات المقصودة في الحوار.

- مبدأ التعاون والقواعد المتفرعة عنه، وهو شرط يصعب التقيد به، أو ربما يستحيل ذلك؛ فالمتحاورون نادرا ما يلتزمون بمبدأ التعاون في حواراتهم ونقاشاتهم، وهذا لأسباب متعددة ذكرها بعض الباحثين (أهمهم ليتش) في دراساتهم ونقدهم لمبدأ التعاون.

- السياقان اللغوي وغير اللغوي للخطاب؛ فللملفوظات دلالات ومعانٍ متعددة بتعدد السياقات التي ترد فيها، بل وفي كثير من الأحيان تستمد دلالاتها من السياقات التي تستعمل فيها، حيث يرى (جون لاينْز) أنّ المقام يوضح معنى الكلمات في التواصل، ويبين نوعَها، فيتعدى ويتخطى القول إلى مقاصد ضمنية[13].

- عناصر أخرى تتّصل بالخلفية المعرفية، إذ لا يمكن أن ينجح تواصل ما، دون وجود ذلك المشترك بين المتخاطبين من معطيات، ومعارف، ومعلومات ثقافية ونفسية واجتماعية ...

ثانيا: تجليات وصور الاستلزام الحواري في الخطاب النّبوي الشريف:

1- مفهوم الحديث النبوي:

يراد بالحديث النبوي الشريف أقوال النبي ﷺ والتي تروي أفعاله وأحواله[14]... ويطلق "الحديث" ما يضاف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، أو صفة خَلقية أو خُلقية. وقد يراد به ما أضيف إلى صحابي أو تابعي، ولكن الغالب أن يقيد إذا ما أريد به غير النبي ﷺ[15].

ما يلاحظ في التعريفين السابقين للحديث النبوي انضمام كثير من الأقوال والأحداث والأحوال والتي وإن كان لها صلة بالنبي ﷺ ولو بشكل غير مباشر فقد أدى ذلك إلى توسعة دائرة الحديث بشكل صعب من خلاله تحديد ماهيته وضبط مفهومه.

وقد آثرنا في هذه الدراسة لتعريف الحديث، ما ذكره عبد الله دراز في كتابه النبأ العظيم؛ إذ يعرّف الحديث النبوي تعريفا يركّز فيه على المتكلم أو القائل وإحالة القول إليه، فهو يعدّ أهم أركان العملية التواصلية وأبرز مرتكزات المقاربة التداولية. فيعرّف الحديث النبوي بأنه: "ما استقبله النبي ﷺ من مغزى ومعنى عن طريق الوحي فبيّنه للناس بألفاظه، وهذا وإن كان ما فيه من المضامين يعزى إلى ملهمه ومعلمه سبحانه وتعالى، لكنه – من حيث هو كلام – حقيق بأن ينسب إلى النبي ﷺ، لأنّ الكلام إنّما ينسب إلى واضعه وقائله الذي أنشأه على نسق معين ولو كانت معانيه قد تواترت من قبل وأخذها اللاحق عن السابق"[16].

ويتماثل الخطاب النبوي على مختلف الأساليب القولية، ويتضمن العديد من الظواهر اللسانية، وظاهرة الاستلزام الحواري من أبرز تلك الظواهر، لذلك حاولنا تتبعها في الخطاب النّبوي، والوقوف على أهم المعاني والمقاصد والتأويلات التي يمكن الحصول عليها، حينما يخترق أحد قواعد مبدأ التّعاون. ولقد استقت الدّراسة نماذجها ونصوصها من كتاب الحديث الشّهير "الموطأ" للإمام مالك - رحمه الله-

2- الاستلزام الحواري في نماذج الأحاديث النّبوية:

أ- الحديث الأول:

ورد في الموطأ: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إنّا نركب البَحْرَ، ونحمل معنا القليل من الماء، فإنْ توضأنا به عطِشنا، أفنتوضأُ من ماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: ((هُـو الطّهور ماؤه، الحِلّ ميتته))[17].

ملاحظة مهمّة: إنّ قوّة الفعل الإنجازيّ في هذا الحديث الشريف، وفي سائر الأحاديث التي ستأتي معنا، مُستمدّة من السلطة الدينية العليا، والقدوة الحسنة التي يتمتع بها شخص النبي صلى الله عليه وسلّم في ضمائر المسلمين؛ لذلك فإنّ نجاح هذه الأفعال وترجمتها على المستوى الفكري والسلوكي مرهون بتلك السلطة وما يترتب عنها من انقياد وطاعة واتباع، إضافة إلى ذلك فإنّ الكثير من الآثار المترتبة والأفعال الناتجة من أحاديث النبي ﷺ نادراً ما تذكر في نصوص الأحاديث، ولكنها حاضرة ومتجسدة في واقع المسلمين وأفكارهم ووجدانهم، وعدم ذكرها في نصوص الأحاديث لا يعني البتة غيابها في الواقع.

لم يكن قصد النبي ﷺ في هذا الحديث إخبار الرجل بهاتين المعلومتين وحسب؛ بل ما يتضمنه هذا الإخبار فعلاً كلاميّا غير مباشر قوّته الإنجازيّة تفيد بأنّ استعمال ماء البحر للوضوء جائز ومسموح في الإسلام للعلّة المذكورة، وأنّ أكل ميتت البحر جائز أيضاً.

في هذا الحوار أضاف النّبي ﷺ تفصيلا لقاعدة الكم، وذلك حين أجاب عما سأله الرجل حول طهارة ماء البحر، فزاد فائدة أخرى، وهي في قوله "الحلّ ميتته"، وهذا توسعة لهم، وبراً بهم، و"هذا مما يتطلبه الشرح والبيان أحيانا: التّطرق والاستطراد إلى أمور تستوفي موضوع السؤال، أو تتعلق به وترتبط ارتباط تشابه أو تضاد، أو غير ذلك مما يمكن أن يحتاج إليه السائل وغيره من عامّة المسلمين في مواقف ومواضع مشابهة أخرى"[18].

ويقتضي الخطاب النّبوي عموما حضور هذه الميزة التداولية في بيان أحكام الشّرع؛ لأنّ النّبي صلى الله عليه وسلم أفضل من يبلغ عن ربّه بالتفصيل والحكمة، وهو أدرى بحال السّائل المخاطب، لذلك يضيف لسؤاله أجوبة تفصّل ما يناسب حياة الناس، ويخدم مصالحهم، وما يقربهم من المباح ويبعدهم عن المحظور. وإن دلّ هذا على شيء، فإنما يدلّ على حضور استراتيجيات الاستلزام الحواري في بلاغة النّبي ﷺ.

ب- الحديث الثاني:

ورد في الموطأ: انصرف رسول الله ﷺ من صلاة جهر فيها بالقراءة، فقال: ((هل قرأ معي منكم أحد آنفا؟)) فقال رجلٌ: نعم. أنا، يا رسول الله. قال، فقال رسول الله ﷺ: ((إنّي أقول مالي أُنازَع القرآن)). فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه بالقراءة...[19].

يمثّل استفهام النبي ﷺ في هذا الحديث فعلا كلاميّا غير مباشر تتضمّن قوته الإنجازية نهْي الناس عن القراءة معه صلى الله عليه وسلّم فيما جهر فيه من القراءة، وقد أحدث هذا الفعل الإنجازيّ الاستفهاميُّ أثرا محسوسا في سلوك النّاس؛ فقد انتهوا عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جهر فيه بالقراءة. إذن فالفعل الكلامي في هذا الحديث كان ناجحا استنادا للأثر السلوكي الذي أحدثه وتم ذكره في نهاية الحديث.

لقد اكتفى النبي ﷺ باستراتيجية التّلميح في خطابه، وعدم إبراز مقصده، حفاظا على مشاعر من قرأ معه. وهي استراتيجية يخرق بها المرسل قاعدة الجهة (الطريقة)، وذلك من أجل بلوغ مراده بطرق يراها مناسبة. وقد فهم الصحابة رضي الله عنهم بفطنتهم مقصد النبي ﷺ، فانتهوا عن القراءة معه فيما جهر فيه.

ومن الملاحظ أيضاً مع هذه الخاصّية أنّ استراتيجية التّلميح تتّسم بالنّسبية في مدى إضمار الخطاب، وصحيح أنّ صحابة النّبي ﷺ على فهم ودراية عالية باللّغة العربية وبمضمر الخطاب والكناية، إلّا أنّه لم يضمر خطابه كلّيا، ففي كلامه "مالي أنازع القرآن" وضوح ملامه وغضبه من الرجل. وربما كانت دلالة نسبية هذا التلميح، حتى يكون حديثه ميسّرا لمن بعد صحابته، وهذه من سنن التّشريع وخصائصه ومقاصده. فلو أغلق حديث النبي صلى الله عليه فهما وغموضا، لانتفى أخذ المؤمنين لمعناه، لذلك كانت فيه هذه الاستراتيجية من الاستلزام الحواري بقدر الحاجة والضرورة والسّياق.

ج- الحديث الثالث:

ورد في الموطأ: في خطاب النبي ﷺ لمحجن الذي ظلّ جالساً حين أقيمت الصلاة، ولم يصلي مع الرسول ﷺ فقال له: ((ما منعك أن تصلي مع النّاس؟ ألست برجل مسلم؟...[20])).

بالنسبة للفعل الكلامي في هذا الحديث فيتطابق وما سبق ذكره في الحديث السابق له؛ إلاّ أنّ الفارق الوحيد بينهما، أنّ الفعل التأثيري حاضرٌ ومسجّلٌ في نصّ الحديث السابق، بينما نجد أنّ الفعل التّأثيري في هذا الحديث غير مذكور، وهذا لا يعني أبدا أنّه غير موجود في الواقع.

أمّا من ناحية الاستلزام الحواري في هذا الخطاب النبوي، فقد تمثّل في تجاوز النّبي ﷺ الأمر والتّنبيه بالإخبار المباشر إلى استراتيجية الاستفهام. يقول بن ظافر الشهري: "ومن ناحية أخرى، قد لا يخرق المرسل قاعدة الكم بالخطاب الخبري فحسب، بل يمكن أن يخرقها بالأفعال اللغوية الأخرى، مثل الاستفهام"[21]. ولا يهمنا في هذا قاعدة الكم تداوليا، بقدر ما يهمنا الفائدة البلاغية والقيمة الإبلاغية التي ميّزت خطابه صلى الله عليه وسلم باستلزام الاستفهام بدل التصريح. ومفاد الحديث يجب عليك أن تصلي مع جماعة المسلمين مهما كان المانع.

د- الحديث الرابع:

ورد في الموطأ: عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أنّ سائلاً سأل رسول الله صلى عليه وسلم عن الصلاة في ثوب واحد؟ فقال رسولُ الله ﷺ: ((أوَ لِـكُلِّكُم ثَوْبانِ؟))[22].

يستعمل النبيّ ﷺ في هذا الخطاب فعلا كلاميا غير مباشر تتضمّن قوّته الإنجازية استفهاما إنكاريا ؛ يدفع المخاطب إلى التأثير فيه بتغيير وتصحيح فكرة خاطئة يعتقدها هذا السائل، وهي عدم جواز الصلاة في ثوب واحد.

أمّا بالنسبة للاستلزام الحواري في هذا الحديث، فقد سأل الرجل النبي ﷺ عن جواز الصلاة في ثوب واحد، فاستنكر عليه ذلك، وأجابه بسؤال تجاوز به قاعدة العلاقة، وذلك حين سأله: هل كل الناس يمتلك ثوبان؟ وهذا الخرق للقاعدة، يستلزم من المسائل أن يصل إلى الإجابة بنفسه، وهو أنّ الصلاة في ثوب واحد جائز.

ومن فوائد هذه الاستراتيجية من الناحية البلاغية، هو التيسير، ثم تقديم التعليل في الإجابة، وكذلك اعتماد مبدأ التّشارك في الوصول إلى الحكم والفائدة. فمن بلغ الإجابة بنفسه، علم تعليلها ومقاصدها، وترسّخت عنده، وازداد فهما لها، وأجاب بثقة تامة كلّ من سأله عنها. أما التيسير فإنّ الشرع كما بين النبي صلى الله عليه وسلم يطلب من المصلي توقّير وارتداء ما تتمّ به سترة الصلاة، وما يناسب هذه العبادة (الصلاة) من الوقار والسّتر دون تكليف ولا تعسير.

ومن الاستلزامات الحوارية الواردة في هذا النوع، ما جرى بين عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وهو على منبر رسول الله ﷺ يخطب المؤمنين يوم الجمعة- ورجل من أصحاب رسول الله ﷺ: ((دخل رجل، من أصحاب رسول الله ﷺ، المسجد يوم الجمعة، وعمر بن الخطاب يخطب، فقال عمر: أية ساعة هذه؟ فقال: يا أمير المؤمنين، انقلبت من السوق، فسمعت النداء، فما زدت على أن توضأت. فقال عمر: والوضوء أيضاً؟ وقد عَلِمْتَ أنّ رسول الله ﷺ كان يأمر بالغُسل))[23].

فهم الرجل من سؤال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه يستنكر عليه قدومه في تلك الساعة المتأخرة، فأخذ يبرر تأخره عن خطبة الجمعة، بأنّ أجاب وأفاد بأكثر من المطلوب منه. وهكذا خرق المقولة الأولى من قاعدة الكم بتفصيله في الرّد. كذلك الرجل: لم يتحرّ الإيجاز في ردّه لتبرير ما فعله، فخرق بالمقولة الثانية قاعدة الطريقة؛ فالمرسل كما تبيّن قد يخرق أكثر من قاعدة في قول واحد.

هـ- الحديث الخامس:

ورد في الموطأ: جاء في مسألة ما يجوز للمحرم أكله من الصيد أنّ أصحاب رسول الله ﷺ اصطادوا حماراً وحشيا، وهم محرمون، فأكل منه بعضهم وأبى البعض، ثمّ سألوا الرسول ﷺ عن ذلك، فقال: ((هل مَعكم من لحمه شيءٌ؟))[24].

استفهام النبي ﷺ في هذا الحديث فعل كلامي يتضمّن قوة إنجازية، ورسالة فحواها ومقصده منها، أنّ الأكل من لحم الحمار الوحشي أمر جائز، وغير محظور في الإسلام.

أيضا في هذا الحديث الشريف إذا تأملنا الحمولة الدلالية لإجابة رسول الله ﷺ، وجدنا أنها تدل على معنيين اثنين في الوقت نفسه، أحدهما حرفي والآخر مستلزم. ومعناها الحرفي وهو سؤاله عما تبقى من لحم الحمار الوحشي، أما معناها الاستلزامي، أنّ ما فعله بعض الصحابة بالأكل منه لم يكن خطأ؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم لا يسكت عن الباطل.

و- الحديث السادس:

ورد في الموطأ، سُئل رسول الله ﷺ عن العقيقة؟ فقال: ((لا أحب العقوق)) وكأنّه إنّما كره الاسم، وقال: ((من وُلد له ولدٌ فأحب أن ينسك عن ولده فليفعل))[25].

أعلم النبي ﷺ من سألوه في بداية الحديث عن عدم محبته للعقوق، وفي هذا الإخبار قوّة إنجازية؛ تدعو النّاس وتوجّههم إلى اجتناب العقوق بشكل عام، سواءً في أقوالهم أو أفعالهم. إذن فالإخبار هنا لم يكن لغرض الإخبار وحسب؛ بل جاء لتمرير رسالة مغزاها الحذر من اقتراف كبيرة العقوق.

أمّا بخصوص الاستلزام الحواري ففي هذا الحديث، لم يجبهم رسول الله ﷺ بادئ الأمر عن سؤالهم، بل أعرب عن عدم محبته وبغضه لكبيرة العقوق؛ وذلك لتشابه اسمها لاسم العقيقة، وفي هذا خرق لقاعدة العلاقة؛ ولكن رسول الله ﷺ اغتنم هذه الفرصة كي يحذرهم من كبيرة العقوق، إذ لا يفوت رسول الله ﷺ سانحة إلا وأرشد فيها أصحابه وأمته من بعده إلى كل الخير، وحذرهم من كل شر، ثم استأنف رسول الله ﷺ حديثه، وأجابهم عن سؤالهم.

ز- الحديث السابع:

ورد في الموطأ: عن زيد بن أسلمَ، أنّ رجلاً في زمان رسول الله ﷺ أصابَه جُرحٌ، فاحتقنَ الجُرح الدّمَ، وأنّ الرّجل دعا رجلين من بني أنمار، فنظرا إليه، فزعما أنّ رسول الله ﷺ قال لهما: " أيّكما أطبُّ؟ فقالا: أوَ في الطِّبِّ خيرٌ يا رسول الله؟ فزعم زيدٌ أنّ رسول الله ﷺ قال: " أنزلَ الدّواء الذي أنزل الأدواء"[26].

ليس تصريح النبي صلى الله عليه وسلّم في نهاية الحديث بعبارة " أنزلَ الدّواء الذي أنزل الأدواء" من باب إخبارهم وتعريفهم بهذه الحقيقة فحسب ؛ بل في مضمونها فعل كلامي يروم بواسطته دفع الرجلين والأمّة كلها إلى عدم الاستسلام للأمراض، والسعي في البحث عن العلاج والدواء المناسب لها، فما من مرض أو سقم إلاّ وقد جعل الله له علاجاً.

أمّا جانب الاستلزام الحواري فقد جاء من جهة إجابة الرجلَيْن عن سؤال النبي ﷺ؛ حيث أنّهما لم يحترما قاعدة العلاقة؛ فقد خرقا هذه القاعدة بعدم الإجابة عن سؤال النبي صلى الله عليه، وأجابا بسؤال آخر يدلّ

على تعجّبها وحيرتها من السؤال الذي سألها إيّاه رسول الله، وفي هذا خرق واضح ومباشر للقاعدة الثالثة من قواعد مبدأ التعاون.

إضافة إلى ما سبق فإنّ من المعاني والحمولات الدلالية التي يكشفها هذا الحديث، والتي ساهمت في ظهور الاستلزام الحواري، هو أنّ أمر علاج المرضى والتداوي كان أمراً مستغربا عند العرب قديما ولم يكن معروفا أو معمولا به عندهم؛ ذلك أنّهم كانوا أهل بادية بعيدين عن مراكز العلم والحضارة.

ي- الحديث الثامن:

عن عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر؛ أنّ رجلا نادى رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال: يا رسول الله، ما ترى في الضبِّ؟ فقال رسول الله ﷺ: (لست بآكله ولا بمحرّمه)[27].

لم يكن جمع النبي صلى الله عليه وسلّم بين عدم أكله للضبّ وبين عدم تحريمه لأكله، جمعا عاديا ليس من ورائه غاية؛ فهو لا ينطق عن الهوى، بل كان يقصد من وراء ذلك القول، فعلا إنجازيّا يروم من خلاله إلى تقرير قاعدة شرعية تلفت انتباهنا وعنايتنا بقضية مهمّة في التّشريع الإسلامي، وهي التمييز والفصل بين ما يرغبه ويشتهيه النبي صلى الله عليه وسلّم كونه بشرا مثلنا، وبين ما كان وحياً يأتيه من الله سبحانه وتعالى. إذ ما يترتب عن الأمر الأول يكون في باب، وما يترتب عن الأمر الثاني يدخل في باب آخر.

وبالعودة إلى الحديث فإنّ الرجل السائل كان يبحث عن الحكم الشرعي لأكل حيوان الضبّ؛ أهو حرام أم حلال؟. ولكنّ النبي صلى الله عليه قبل أن يجيبه بأنه غير محرم، تقدّم في قوله: (لست بآكله)، وفي هذه المقدمة الصغيرة الموجزة قاعدة شرعيّة مهمة تفيد بأنّه ليس من الضروري اعتبار كل ما لا يأكله النّبي صلى الله عليه وسلم يدخل في دائرة الحرام؛ فالنبي ﷺ بشر مثلنا تشتهي نفسه أشياء، وتعاف أشياء أخرى. إذن فتلك الزيادة في إجابة النبي ﷺ والتي تعدّ في قانون غرايس تجاوزا لقاعدة الكم، جاءت في هذا الحديث لبيان حكم شرعي وتقرير قاعدة فقهيّة ، وجاءت في الوقت عينه تيسيرا وتخفيفا على المسلمين في تعاطيهم مع شؤونهم الدينية والدنيوية.

الخاتمة:

يمكننا القول في خلاصة الدراسة: إنّ ظاهرة الاستلزام الحواري في الخطابات عامة، وفي الخطاب النبوي خاصة، تمثّل الجانب التبليغي الضمني وغير المباشر من التخاطب، إضافة إلى أنها تدلّ على الجانب الجماليّ والتهذيبي؛ فالمرسل يلجأ إلى هذه الجوانب الضمنية والتهذيبية لتبليغ مقاصده، ولمراعاة مشاعر المخاطَبين، واحترام مداركهم وتفكيرهم؛ فكما يقال "اللبيب بالإشارة يفهم". وهذا ما وجدناه فعلا في بعض الأحاديث النبوية التي راعى فيها النّبي ﷺ أحوال أصحابه حين استعمل الأسلوب غير المباشر، واستغنى بالتلميح عن التصريح. وعموما خلصت الدراسة إلى النتائج الآتية:

- لم يستعمل النبي صلى الله عليه وسلّم الأسلوب الخبري والأسلوب الإنشائي وخاصة الاستفهام، بغرض الإخبار أو الاستفسار وحسب؛ بل كان مقصده من وراء ذلك تحويل تلك الأقوال من خبر وإنشاء إلى أفعال ومنجزات يمارسها المسلمون في حياتهم وعلى أرض واقعهم.

- الاستلزام الحواري ظاهرة لسانية تداولية، يستخدمها المتخاطبون تحقيقا لمقاصد وغايات كثيرة في التواصل تبعا لما يتيحه الاستلزام من إمكانات الإضمار والتضمين.

- يأتي الاستلزام الحواري في الخطاب عموما حين يتجاوز المخاطبون مبدأ التعاون ضمن استراتيجيات خرق قواعد الكم والكيف وغيرها؛ فالتعاون يقوم على السطحية والإظهار، وما خرج عن ذلك، كان استلزاما.

- اهتم علماء التداولية بظاهرة الاستلزام الحواري لما للاستلزام من أسرار تداولية، ولما له من حضور في الخطابات الأكثر تأثيرا في الحياة.

- ورد الاستلزام الحواري في الخطاب النبوي الشريف - على صاحبه أفضل الصلاة والسلام – على صور كثيرة وأنماط مختلفة.

- رغم أنّ الكثير من أحاديث موطأ الإمام مالك -رحمه الله- تتّسم بالمباشرة والتصريح في الأسلوب؛ إلا أنّ الاستلزام الحواري كان ماثلا في كثير منها على غرار سمات تداولية وبلاغية أخرى، وكلها تناسب بيان أحكام الشريعة، وتعليم الأمة أمور دينها، وإرشادها إلى الخير والفضيلة. وهذا ما تحتاجه الخطابات التعليمية والإرشادية.

- أبان الاستلزام الحواري في الحديث النبوي الشريف مدى حاجة المخاطب إلى هذه الاستراتيجية التداولية في التأثير والإقناع. كما أبان عن بلاغة النبي ﷺ، وحكمته في التعامل مع المستمع، ومع سياق الكلام، ومنه إبلاغ رسالة التشريع على أتمّ وجه، وأعذب بيان.

هوامش:

[1] - ينظر: أدراوي العياشي، الاستلزام الحواري في التداول اللّساني، (2011)، دار الأمان (الرباط، المغرب)، ط1، ص18.

[2] - أحمد المتوكل، الاسلتزام التخاطبي بين البلاغة العربية والتداوليات الحديثة، (2014)، دار الكتب (إربد، الأردن)، ط2، ص292.

[3] - جاك موشلار، آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، (2010)، ترجمة: مجموعة من الأساتذة والباحثين، منشورات دار سيناترا (تونس)، ط2، ص212.

[4] - مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، (2008)، دار التنوير للنشر والتوزيع (الجزائر)، ط1، ص45.

[5] - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، (2002)، دار المعرفة الجامعية (مصر)، ط1، ص33.

[6] - عبد الرحمن طه، التواصل والحجاج، (1994)، مطبعة المعارف الجديدة (الرباط، المغرب)، ط1، ص12.

[7] - مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص46-47.

[8] - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، (2004)، دار الكتاب الجديد المتحدة (بيروت)، ط1، ص437.

[9] - محمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية): دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، (2013)، مكتبة الآداب (القاهرة)، ط1، ص93.

[10] - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص33.

[11] - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص437.

[12] - ينظر: العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ص104.

[13] - جون لاينز، اللّغة والمعنى والسّياق، (1987)، ترجمة: عباس صادق الوهاب، دار الشّؤون الثّقافية العامة (بغداد، العراق)، ط1، ص222.

[14] - سعيد الأفغاني، في أصول النحو، (1987)، المكتب الإسلامي (بيروت، لبنان)، ط1، ص46.

[15] - محمود فجال، الحديث النبوي في النحو العربي، (1997)، أضواء السلف (الرياض، المملكة العربية السعودية)، ط2، ص55.

[16] - ينظر: عبد الله دراز، النّبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، (1997)، دار طيبة للنشر والتوزيع (الرياض، المملكة العربية السعودية)، ط1، ص11.

[17] - مالك بن أنس، الموطّأ، (1997)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي (بيروت)، ط2، ج1، ص55-ص56.

[18] - يوسف القرضاوي، فتاوى معاصرة في شؤون المرأة والأسرة، (1987)، دار البعث (قسنطينة)، ط2، ص40.

[19] - مالك بن أنس، الموطأ: ج1، ص139.

[20] - المصدر نفسه، ج1، ص193.

[21] - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص440.

[22] - مالك بن أنس، الموطأ، ج1، ص202.

[23] - المصدر نفسه، ج1، ص157.

[24] - المصدر نفسه، ج1، ص470، ص471.

[25] - المصدر نفسه، ج1، ص645.

[26] - المصدر نفسه، ج1، ص645.

[27] - المصدر نفسه، ج2، ص560.

قائمة المراجع:

الكتب العربية:

1- مالك بن أنس، الموطّأ، (1997)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي (بيروت)، ط2، ج1. (مصدر ومدونة الدراسة).

2- أحمد المتوكل، الاسلتزام التخاطبي بين البلاغة العربية والتداوليات الحديثة، (2014)، دار الكتب (إربد، الأردن)، ط2.

3- أدراوي العياشي، الاستلزام الحواري في التداول اللّساني، (2011)، دار الأمان (الرباط، المغرب)، ط1.
4- سعيد الأفغاني، في أصول النحو، (1987)، المكتب الإسلامي (بيروت، لبنان)، ط1.
5- عبد الرحمن طه، التواصل والحجاج، (1994)، مطبعة المعارف الجديدة (الرباط، المغرب)، ط1.
6- عبد الله دراز، النّبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، (1997)، دار طيبة للنشر والتوزيع (الرياض، المملكة العربية السعودية)، ط1.
7- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، (2004)، دار الكتاب الجديد المتحدة (بيروت)، ط1.
8- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، (2002)، دار المعرفة الجامعية (مصر)، ط1.
9- محمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية): دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، (2013)، مكتبة الآداب (القاهرة)، ط1.
10- محمود فجال، الحديث النبوي في النحو العربي، (1997)، أضواء السلف (الرياض، المملكة العربية السعودية)، ط2.
11- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، (2008)، دار التنوير للنشر والتوزيع (الجزائر)، ط1.
12- يوسف القرضاوي، فتاوى معاصرة في شؤون المرأة والأسرة، (1987)، دار البعث (قسنطينة)، ط2.

الكتب المترجمة:

1- جاك موشلار، آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، (2010)، ترجمة: مجموعة من الأساتذة والباحثين، منشورات دار سيناترا (تونس)، ط2.
2- جون لاينز، اللّغة والمعنى والسّياق، (1987)، ترجمة: عباس صادق الوهاب، دار الشّؤون الثّقافية العامة (بغداد، العراق)، ط1.